

إذا وسّد الأمرُ لغير أهله

رابطة خطباء الشام

مشروع الخطبة الأسبوعية

shamkhotaba.org
shamkhotaba
contact@shamkhotaba.org

رابطة خطباء الشام
Sham Khotaba Association

مقدمة:

إذا رأَسَ النَّاسَ مَنْ كَانَ فَقِيرًا عَائِلًا، فَصَارَ ملْكًا عَلَى النَّاسِ، فَإِنَّهُ لَا يَكُوْنُ يَعْطِي النَّاسَ حَقَوْقَهُمْ، بَلْ يَسْتَأْثِرُ عَلَيْهِمْ بِمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ، وَإِذَا كَانَ مَعَ هَذَا جَاهَلًا جَافِيًّا، فَسَدَ بِذَلِكَ الدِّينِ؛ لَأَنَّهُ لَا يَكُوْنُ لَهُ هَمَّةٌ فِي إِصْلَاحِ دِينِ النَّاسِ وَلَا تَعْلِيمِهِمْ، بَلْ هِمَّتْهُ فِي جَبَايَةِ الْمَالِ وَالْكَتْنَازَةِ، وَلَا يُبَالِي بِمَا فَسَدَ مِنْ دِينِ النَّاسِ، وَلَا بِمَنْ ضَاعَ مِنْ أَهْلِ حَاجَاتِهِمْ.

وقال الشَّعْبِيُّ: "لَا تَقْوُمُ السَّاعَةُ حَتَّى يَصِيرَ الْعِلْمُ جَهَلًا، وَالْجَهَلُ عِلْمًا".

1- خيانة من ولَى غَيْرَ كَفِيٍّ مع وجود الكفء

إنَّ إِسْنَادَ الْأَمْرِ إِلَى أَهْلِهَا أَمَانَةٌ فِي عَنْقِ وَلِيِّ الْأَمْرِ، فَإِذَا مَا أَسْنَدَهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا، مَعَ وُجُودِ أَهْلِهَا، فَقَدْ خَانَ تَلْكَ الْأَمَانَةَ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ، فَقَالَ: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمًا يَعْلَمُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النَّسَاءُ: 58].

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "أَمَّا أَدَاءُ الْأَمَانَاتِ فَفِيهِ نَوْعَانٌ: أَحَدُهُمَا الْوَلَايَاتُ، وَهُوَ كَانَ سَبَبَ نَزُولِ الْآيَةِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ، وَتَسَلَّمَ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةَ مِنْ بَنِي شَيْبَةَ، طَلَبَهَا مِنْهُ الْعَبَّاسُ، لِيَجْمِعَ لَهُ بَيْنَ سَقَايَةِ الْحَاجِ وَسَدَانَةِ الْبَيْتِ.. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَدَفَعَ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةَ إِلَى بَنِي شَيْبَةَ.. فَيُجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ أَنْ يُولِيَ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ أَصْلَحَ مِنْ يَجْدِهِ لِذَلِكَ الْعَمَلِ" [1].

وَكَمَا أَمَرَ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّهُ نَهَى عَنِ الْخِيَانَةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ إِسْنَادَ الْأَمْرِ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ.. كَمَا قَالَ: {يَا أَيُّهَا

الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون [الأنفال 27].

ومن أعظم الخيانات إسناد الأمور إلى غير أهلها، لما في ذلك من الظلم للأكفاء بعدم وضعه في موضعه وإسناد الأمر إليه، ولغير الأكفاء الذي أسندة إليه الأمور وهو غير قادر على القيام بها، وللأممة التي تصطلي بنار التدابير السيئة الصادرة من غير الأكفاء، ولو لي الأمر نفسه الذي أسنده إلى غير أهله.. فهو يتحمل إثم إسنادها إلى غير أهلها.. وإن حرمان الكفاء مما يجب أن يُسند إليه.. وإن ضرر الأمة من تدبير غير الكفاء السيء.

2- الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة

وتزداد خيانةولي الأمر الذي يسنده إلى غير أهلها، إذا علم أن الأكفاء نادرون بين البشر، فإذا وجد هذا النادر واختير غيره من الجهلة أو الخونة أو الضعفاء، كان ذلك دليلاً على أن الخيانة في تارك الكفاء إلى غيره متأصلة فيه، وأنه لا يريد للأمة خيراً، وإنما يريد لها الشر، وإنزال الفساد بساحتها، إشباعاً لرغباتٍ شريرةٍ فيه وأهواه فاسدةٍ وجلباً لمصالح شخصية. وقد شبّه الرسول صلى الله عليه وسلم، الرجل الكفاء بـنجيب الإبل [وهو قليل بين الإبل الكثيرة] الذي إذا وجده المسافر أمن في سفره على نفسه وعلى متعاه؛ لأنّه قويٌ صبورٌ متّمرسٌ على الحمل والسفر وتحمل المشاق.

وهكذا الرجل الكفاء يأمنهولي الأمر الذي اختاره، وتأمنه الأمة على ضروراتها ومصالحها، أما غير الكفاء فهو شبيه بالإبل الكثيرة التي يلتمس الراكب منها واحدةً صالحة فلا يجدها.. وهكذا البشر الذين ليسوا أكفاءً كثيرون.. روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة) [2]

3- أسباب اختيار غير الكفاء مع وجود الكفاء

إن السبب الرئيس في كل ما يخالف أمر الله تعالى هو اتباع الهوى الذي يُرجح عند فاقد الإيمان أو ضعيفه، ما يهواه هو على ما يحبه الله ورسوله، كما قال تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبُوا لَكَ فَاعْلُمْ أَنَّمَا يَتَبَعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أَنْتَ بَعْدَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص 50].

وإذا غالب على المرء اتباع هواه أرداه في مهافي الهلاك وهو يظن أنه يبني لنفسه المجد الشامخ.. ومظاهر اتباع الهوى تتجلّى في اختيار قريبه، وإن كان جاهلاً ضعيفاً خائناً، كابنه وأخيه ونحوهما، أو صديقه مجاملة له، وتعاوناً معه على محاباة كل منهما الآخر. أو لاتفاق في الهوى والصفات، كأن يكون أحدهما يميل إلى اللين أكثر، فيختار من يوافقه في هذه الصفة؛ لأنه بلينه الزائد قد ألف نمطاً معيناً من معاملة الناس، والشديد قد يغير من ذلك النمط.. أو يكون شديداً عنيفاً، ألف البطش بالناس، وعدم الرحمة واللين وطلقة الوجه مع رعيته، فيختار من يوافقه على ذلك، حتى تصبح رعيته ذليلة لا تعصي له أمراً وإن كان فيه هلاكها.

مع أن الذي ينبغي عمله هو العكس، فيختار اللين من الأكفاء من يميل إلى الشدة ليعدل أمر الناس باعتدالولي الأمر ونائبه، حيث يخفف هذا من شدة هذا ويعدل هذا من لين ذاك.. وإذا كانولي الأمر شديداً اختار بجانبه من يميل إلى اللين، ليخفف من شدته، وبذلك تعدل الأمور.

قال ابن تيمية رحمه الله: "لأن المتألّي الكبير إذا كان خلقه يميل إلى اللين، فينبعي أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة، وإذا كان خلقه يميل إلى الشدة، فينبعي أن يكون خلق نائبه يميل إلى اللين ليعدل الأمر".

ولهذا كان أبو بكر الصديق يؤثر استنابة خالد، وكان عمر يؤثر عزل خالد واستنابة أبي عبيدة بن الجراح، لأن خالداً كان شديداً، كعمر ابن الخطاب، وأبا عبيدة كان ليناً، كأبي بكر، وكان الأصلح لكلّ منهما أن يولي من ولاه ليكون أمره معتدلاً. فظاهر بهذا أنولي الأمر الذي يريد للأمة الخير يولي من يخالفه في بعض صفاته، لما يرى في مخالفته له من المصالح العامة وأن صاحب الهوى لا يولي إلا الذي يوافقه في صفاته التي تحقق له مصالحه الخاصة، وإن كان فيها ضرر على عامة الناس..

وقد يكون اختياره لغير الكفاء؛ لأنه من بلده أو من جنسه، أو يتكلّم بلغته، أو يوافقه في مذهبه أو طريقه، وقد يترك الكفاءة حسداً له، أو لما بينهما من عدم الانسجام أو غير ذلك.

ولهذا قال ابن تيمية رحمة الله: "فإن عدل عن الأحق الأصلاح إلى غيره، لأجل قرابة بينهما أو ولاء أو عتاقة أو صدقة أو موافقة في بلد أو مذهب، أو طريقة، أو جنس، كالعربية والفارسية، والتركية، والرومية، أو لرשותه يأخذها منه من مال أو منفعة، أو غير ذلك من الأسباب، أو لضعف في قلبه على الأحق، أو عداوة بينها، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين.. ودخل فيما نهى عنه في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال 27-28].

فإن الرجل لحبه لولده، أو لعتيقه، قد يؤثره في بعض الولايات، أو يعطيه ما لا يستحقه، فيكون قد خان أمانته، وكذلك قد يؤثره في ماله أو حفظه بأخذ ما لا يستحقه، أو محاباة من يداهنه في بعض الولايات، فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته" [3]

وقد يختار غير الكفاء لموافقته له في الفسق، من أجل أن يعينه على فسقه، أو لأنهما ظالمان، ويريده أن يعينه على ظلمه، أو غير ذلك من الأسباب، وكلها أسباب لا تخوله أن يختار غير الكفاء ويترك الكفاء، لما في ذلك من الخيانة..

4- أي رفعة ينشد بها المسلمون في ظل غياب الأمانة؟!

الإسلام دين النزاهة والأمانة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، فأمانة المسؤول أمانة عظيمة، لا اختيار الأصلاح لكل عمل، دون مراعاة لأحد، ولا محاباة لفرد من الأفراد، دون تقدير لشعور قريب أو صديق، فلن يجادل عن المفترض أحد يوم القيمة، بل سيقاسي ألوان العذاب بسبب تفريطه في الأمانة وتضييعه لها، وسيكون جلساً على خصماً، وشهادة عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وَيُلْلَهُ لِلأَمْرَاءِ، وَيُلْلَهُ لِلأَمْنَاءِ، وَيُلْلَهُ لِلْمُسْلِمِينَ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ نَوَائِبَهُمْ كَانَتْ مُعْلَقَةً بِالثُّرَيَا، يَتَذَبَّدُونَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَكُنُوا عَمِلُوا عَلَى شَيْءٍ) [4]

وفي الحديث: (أَيُّمَا رَجُلٌ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى عَشَرَةِ أَنْفُسٍ، عَلِمَ أَنَّ فِي الْعَشَرَةِ أَفْضَلَ مِمْنِ اسْتَعْمَلَهُ، فَقَدْ غَشَ اللَّهَ، وَغَشَ رَسُولَهُ، وَغَشَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ...)، والمتأمل في هذا الزَّمن، والناظر في واقع المسلمين اليوم، يجد أنَّ كثيراً من الأعمال يتولّها أناسٌ ليسوا أهلاً لهذا المكان، لا يخافون الله ولا يهابونه، فكيف تسير سفينة الحياة مع تلك الفئة من الناس؟!

روى الإمام أحمد في مسنده، عن يزيد بن أبي سفيان، قال: قال أبو بكرٍ حينَ بعثتني إلى الشَّام: يا يزيدُ، إنَّكَ قَرَابَةً عَسِيَتْ أَنْ تُؤثِّرَهُمْ بِالْإِمَارَةِ، وَذَلِكَ أَكْبَرُ مَا أَخَافُ عَلَيْكَ، فإنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: (مَنْ وَلَيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً، فَأَمْرٌ عَلَيْهِمْ أَحَدَا مُحَابَاةً، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لَا يَقْبِلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ...)، فتفكروا رحمة الله في حال المسلمين اليوم ، والواقع الأليم الذي تعيشه الأمة في هذا الزَّمن، من توسيد الأمر لغير أهله، الذين يستغلون مناصبهم لاستغلال المسلمين، والذين لا يأبهون بأكل الرشوة بالباطل، وتأخير معاملات المسلمين، والذين لا يتورّعون عن الظلم والعدوان، ومع ذلك تجدهم قد تسنموا قمم المراتب، وأعلى المناصب، فأين العزة والفالح؟ وأين الرفعة والصلاح التي ينشد بها المسلمون في كل مكان مع هذا التفريط في الأمانة؟!

5- رسالة إلى كل مؤمن

أيها المسلمون:

على الموظف والمرؤوس، وعلى العامل والخادم، أن يؤدي كلَّ منهم العمل المنوط به على أكمل وجه وأحسنِه، فذلك من الأمانة، ولا بدَّ أن يستنفد جلَّ وقته، وكلَّ جهده في إكمال عمله وتحسينه، أمَّا من فرط في أداء عمله المنوط به، كمن يأخذ الباقي دون علم صاحب العمل، أو من يقوم باستخدام آلات العمل وأجهزته ومعداته من أجل مصالحه الشخصية، أو من

يأخذ شيئاً من عمله لبيته أو لغيره دون إذن مسبق، أو يسرق آلات الحرب ومعداته من عمله، أو يؤخر معاملات المسلمين من أجل حفنة قدرة من أوساخ الدنيا، أو يقبل الواسطات، أو يقدم نفسه في العطایا، فتلك الأعمال وغيرها من الخيانة والغلو والعياذ بالله، قال تعالى: {وَمَنْ يَغْلِلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكُنْدِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: (مَنِ اسْتَعْمَلَنَا مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَمَنَا مُخْبِطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَفَاقَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْبِلْ عَنِّي عَمَلَكَ، قَالَ: وَمَا لَكَ، قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: وَأَنَا أَقُولُهُ الآنَ مَنِ اسْتَعْمَلَنَا مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلَبِيجٌ بِقَلْبِهِ وَكَثِيرٌ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخْذَ وَمَا نُهِيَ عَنْهُ أَنْتَيِ) [5]

6- إذا ضيّعت الأمانة فانتظر السّاعة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ: يَبْنَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجِلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابٌ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةِ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ، قَالَ: (أَيْنَ أَرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟) قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: (فَإِنَّا ضَيَّعْتَ الْأَمَانَةَ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتْهَا؟ قَالَ: (إِذَا وُسِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) [6]

فَلَوْ تَعْنَى فِي حَدِيثِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَنَفْهُمْ أَنَّهُ يُشَيرُ إِلَى قَانُونِ مِهْمٍ لِلْعُمَرَانِ الْبَشَرِيِّ؛ أَنَّ إِسْنَادَ الْأَمْرِ لِغَيْرِ أَهْلِهِ؛ يَعْنِي الْخَرَابِ وَالْدَّمَارِ لِذَلِكِ الْمَجَمِعِ الَّذِي يَقُعُ فِيهِ ذَلِكَ.

7- غياب الأمانة يعقبه بلاء تصدر الروبيضة:

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ سِنِينَ خَوَادِعًا، يُتَهَمُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَكْذِبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدِّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ النَّاسِ الرُّوَيْبِضَةُ)، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: (السَّفَيْهُ يَنْطِقُ فِي أَمْرِ الْعَامَةِ) [7]

قَالَ الْإِمَامُ الشَّاطِئِيُّ: "قَالُوا: هُوَ الرَّجُلُ التَّالِفُ الْحَقِيرُ يَنْطِقُ فِي أَمْوَالِ الْعَامَةِ، كَانَهُ لَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْوَالِ الْعَامَةِ فَيَتَكَلَّمُ". وَمِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الصَّفَاتِ، وَمَا تَوْحِي بِهِ نَرْسِيَ أَنَّ الْحَدِيثَ يُشَيرُ إِلَى صَنْفٍ مِنَ النَّاسِ لَا يَهْمِمُهُ أَمْرُ الدِّينِ فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا هُمْ أَصْحَابُ أَهْوَاءِ دُنْيَا وَرِزْقِهِ، يَرْفَعُونَ رَأْيَاتِ جَاهِلِيَّةَ، وَيَدْعُونَ إِلَى مِبَارَئِ ضَالَّةِ هَدَامَةِ، وَيَتَطَلَّبُونَ التَّرْزِعَ عَلَى النَّاسِ وَالرَّئَاسَةِ، يُشَيرُ إِلَى ذَلِكَ وَصَفْهُمُ بِالْتَّفَاهَةِ وَالْفَسْقِ وَالْحَقَّارَةِ، فَلَيَسُوا مِنْ طَلَابِ الْحَقِّ، وَلَا مِنْ مُلْتَمِسِهِ بِصَدْقَةِ، وَإِنَّمَا هُمْ مِنَ الْأَدْعِيَاءِ الْكَانِبِينَ، الَّذِينَ لَا تَخْفِي أَحْوَالَهُمْ عَلَى أَدْنَى ذِي بَصِيرَةٍ، وَلَوْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَدَافِعُونَ عَنِ الْحَقِّ، وَيَنْصُرُونَهُ..

إِنَّهُمْ أَئْمَةُ الْضَّلَالِ، وَمِنْ وَالَّهِمِ، الَّذِينَ ابْتُلَيْتُ بِهِمْ هَذِهِ الْأَمْمَةَ، وَأَتَيَّبُ الْأَهْوَاءَ وَالشَّهْوَاتِ، وَقَادَةُ الضَّيَاعِ الْفَكَرِيِّ، وَالْانْحِرَافِ الْسُّلُوكِيِّ، وَالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ الْأَخْلَاقِيِّ فِي الْأَرْضِ، يَؤَازِرُهُمُ الْمَنَافِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْجَهْلَةُ بَدِينُ اللَّهِ الْمُغْفَلُونَ، الَّذِينَ قَدْ يَلْبِسُونَ لِبَاسَ الْعِلْمِ وَالْهَدَىِ، وَلَكِنَّهُمْ يَبْعَدُونَ بَيْنَهُمْ بَعْرَضًا مِنَ الدِّينِ، يَسْتَخْدِمُونَ عِلْمَهُمْ لِتَبْرِيرِ الْفَسَادِ، وَالْتَّمَاسِ الْأَعْذَارِ لِلْسَّقْوَطِ وَالْانْحِرَافِ، وَخُلُطَ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، حَتَّى تُضَيَّعَ مَعَالِمُ الْحَالَ وَالْحَرَامِ، وَالْمَعْرُوفِ وَالْمَنْكَرِ فِي نَظَرِ الْعَامَةِ..

وَيَتَصَدِّرُ هُؤُلَاءِ مِيَادِينِ الْأَجْتَمَاعِيِّ، وَالْمَسْؤُلِيَّاتِ الْكَبِيرَى، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْزُوِي الْأَخْيَارَ عَنِ السَّاحَةِ، أَوْ يُفْرَضُ عَلَيْهِمِ الْإِقْصَاءِ، وَيَصْبِحُ أَهْلُ الْحَقِّ قَابِضِينَ عَلَى الْجَمَرِ، يُحَارِبُونَ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَجِدُونَ عَلَى الْحَقِّ أَعْوَانًا.

وَتَنْقَطِعُ الْجَسَورُ بَيْنَ أَوْلَى الْعِلْمِ وَالْبَصِيرَةِ بَدِينُ اللَّهِ، وَالْغَيْرَةِ عَلَى حِرْمَاتِهِ، وَبَيْنَ هُؤُلَاءِ مِنْ أَوْلَى الظُّلُمِ وَالْقَهْرِ، الَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِزَمَانِ الْأَمْوَالِ، فَلَا يَبْقَى بَيْنَهُمْ إِلَّا التَّنَازُعُ وَالصَّرَاعُ، الَّذِي رَبَّمَا يَخْفَتُ تَارَةً، وَيَتَأَجَّجُ تَارَةً أُخْرَى، وَتَكْثُرُ الْخَرُوقُ فِي سَفِينَةِ الْمَجَمِعِ وَتَتَسَعُ، فَلَا يَكَادُ أَهْلُ الْحَقِّ يَعْالِجُونَ أَمْرًا حَتَّى تَفَاجَهُمْ أَمْرُ..

8- ويُضيّعُ الْعِلْمُ، وَيَتَصَدِّرُ الرُّوَيْبِضَةُ:

فِي زَمَنِ الرُّوَيْبِضَةِ تَجِدُ الْأَصَاغِرُ هُمُ الَّذِينَ يَتَصَدَّوْنَ لِلْتَّعْلِيمِ وَالْفَتْوَىِ، عَنْ أَبِي أُمِيَّةَ الْلَّخْمِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ثَلَاثَةً: إِحْدَاهُنَّ أَنْ يُلْتَمِسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ). [8]

يقول ابن القيم رحمة الله واصفًا حال المتعالمين: "انتكست عليهم قلوبهم، وعمي عليهم مطلوبهم، رضوا بالأمانى، وابتلوا بالحظوظ، وحصلوا على الحرمان، وخاضوا بحار العلم لكن بالدعوى الباطلة وشقاشق الهنيان، ولا - والله - ما ابتلت من وشل أقدامهم، ولا زكت به عقولهم وأحلامهم، ولا ابليت به لياليهم وأشرقت بنوره أيامهم، ولا ضحكت بالهدى والحق منه وجوه الدفاتر إذ بلت بمداده أقلامهم، أنفقوا في غير شيء نفائس الأنفاس، وأتعبوا أنفسهم وحيروا من خلفهم من الناس، ضيّعوا الأصول فحرموا الوصول، وأعرضوا عن الرسالة فوقعوا في مهامه الحيرة وبيداء الضلاله".

ويقول رحمة الله: "وقد رأى رجل ربعة بن أبي عبد الرحمن بيكي فقال: أستُقْتَيْ من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم، قال: ولبعض من يُفْتَنُ هُنَّ أَحْقَنَ بِالسَّجْنِ مِنِ السُّرَاقِ". قال بعض العلماء: فكيف لو رأى ربعة زماننا وأقدام من لا علم عنده على الفتيا، وتوثّبه عليها، ومدّ باع التكّلف إليها، وتسلقه بالجهل والجرأة عليها، مع قلة الخبرة وسوء السيرة وشُؤم السريرة، وهو من بين أهل العلم مُنْكَرٌ أو غريب، فليس له في معرفة الكتاب والسنّة وآثار السلف نصيب، ولا يبدي جواباً بإحسان وإن ساعد القدر فتواه كذلك يقول فلان بن فلان. [9]

خنافسُ الأرض تجري في أعنٰتها * * وسابحُ الخيل مربوطٌ إلى الودِ
وأكرمُ الأسدِ محبوسٌ ومُضطهدٌ * * وأحقرُ الدودِ يسعى غير ماضٍ
وأتفهُ الناس يقضي في مصالحهم * * حكمُ الروبيضة المذكور في السنَدِ
فكم شجاعٌ أضعاعُ الناسُ هبَّتهُ * * وكم جبانٌ مُهابٌ هيبةُ الأسدِ
وكم فصيحٌ أماتُ الجهلُ حُجَّتَهُ * * وكم صفيقٌ لِهُ الأسماعُ في رَغَدِ
وكم كريمٌ غداً في غير موضعه * * وكم وضعٌ غداً في أرفعِ الجُددِ
دار الزمان على الإنسان وانقلبَتْ * * كلُّ الموازين واحتلَّتْ بِمُسْتَنِدِ

في الوقت الذي تجتاح فيه ثورات الأحرار أقطاب الوطن العربي، وترفض الشعوب الاستسلام لطغيان أنظمتها فتهبّ ل تستردّ كرامتها وحرّيتها المصادرية والمفترضة من قبل تلك الأنظمة الجائرة، تجد أنّ عجلة الإصلاح تتراجع عصوراً للوراء، ويصبح المواطن مهّشاً مهاناً مظلوماً مبغياً عليه، ويصبح الوطن مُداراً من قبل أناسٍ (يسودوا قبل أن يتفقّهوا).

نعم.. ففي زمن الروبيضات تجد الأمانة مضاعةً والأمر يوسيّد إلى غير أهله، وفي زمن الروبيضة يصبح الناس فوضى لا حكماء يقودونهم، بل تكون القيادة للجهال وأنصاف المتعلمين، وفي زمن الروبيضة يصبح من لا عقل لهم ولا حلم لديهم هم أهل الوجاهة والتصدر والقيادة، ويصبح العقلاه الحكماء الحلماء هم الغرباء، وفي زمن الروبيضة يسخر الإعلام أجهزته المرئية والمسموعة لأخبار أهل الفن والرياضة والمنافقين، ويتجاهل أخبار أهل العلم والإبداع والمصلحين.

1 - [مجموع الفتاوى (28/246)].

2 - رواه مسلم (4/1973).

3 - مجموع الفتاوى: 249.-28/248

- 4 - أخرجه أَحْمَد بِسْنَدْ حَسْنٍ.
- 5 - أخرجه مسلم.
- 6 - أخرجه الْبَخَارِيَّ.
- 7 - أخرجه الطَّبَرَانِيُّ وَأَحْمَد.
- 8 - رواه الطبراني في المعجم الكبير؟ وصححه الألباني (2207) في صحيح الجامع؟
- 9 - إعلام الموقعين 4/186

المصادر: